المحاضرة الثانية:

من فلسفة العصور الوسطى إلى الفلسفة الحديثة.

عوامل الانتقال

لقد حدثت مرحلة انتقال هامة بين فترة تراجع العصور الوسطى والقفزة الكبرى في القرن السابع عشر، وهي ما تعرف تاريخياً بعصر النهضة، وبرزت حركات حدّدت معالم فترة الانتقال هذه، إذ يكاد يتفق مؤرخو العصر الحديث على أربع حركات كبرى:

أولاً، النهضة الإيطالية أو ما تعرف بالمرحلة المتقدمة لعصر النهضة العام حيث إحياء الفنون والآداب، لكنّها لم تأت بأعمال كبرى في ميدان الفلسفة، لأنّها كانت فترة إعادة كشف للمنابع لا مجرد تأمل فلسفي واسع النطاق(11)، ماعدا جانب الفلسفة السياسية الذي برز فيه "**نيكولا مكيافيللي**" ***Niccolo Machiavelli*** (1469-1527)، وعمله الخالد "**الأمير**".

ثانياً، النزعة الإنسانية: التي اقتصر تأثيرها على المفكرين أمثال "**إرازموس**" ***Erasmus*** (1466-1536)، و"**توماس مور**" ***Thomas More*** (1478-1535) الفيلسوف الإنجليزي المشهور بكتابه" **اليوتيبا**" ***Utopia*** وغيرهم، وسميت كذلك لاهتمامها بالإنسان الفرد وبتحقيق ذاته في هذه الحياة الدنيا.

ثالثاً، حركة الإصلاح الديني: داخل الكنيسة المسيحية التي حاربت وساطة الكنيسة مع "**مارتن لوثر**" ***Martin Luther*** (1483-1546) وغيره.

---

[11] - رسل (برتراند). حكمة الغرب، الجزء الثاني، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة: فؤاد زكرياء. عالم المعرفة، 1983.ص:23.

وأخيراً: حركة إحياء العلوم: كانت مع "كبرنيكوس ***Copernicus*** " (1473-1543) و"تيكو براهي ***Tycho Brahe*** (1546-1601) و "**كبلر**" ***Kepler*** (1571-1630)الخ.

وتبرز معالم الفلسفة الحديثة عندما نقارنها بسمات الفلسفة السابقة عنها، وهي فلسفة العصور الوسطى أو الفلسفة المدرسية السكولائية، كما يصعب على كل دارس رسم خط فاصل بين الفترة الوسيطية والحديثة بصورة مطلقة، أو بعبارة أخرى، لا يمكن أن نعدّد بدقة الخصائص التي تفصل بين العصرين، أو تميّز عصراً عن الآخر. لكن على الرغم من ذلك كلّه، تبدو الفترة الوسيطية فترة متميّزة بخصائص عامة ليست فاصلة بمعناها الدقيق، وأهمّها خاصيّتان: أولاً، خضوع التفكير للوحي، والفلسفة للعقيدة، وثانياً، إهمال الملاحظة العلمية؛ أمّا الخاصية الأولى فتظهر جليّة في أعمال فلاسفة الفترة الوسيطية. الوسيطيون أو السكولائيين أهملوا وقائع الطبيعة الخارجية، وانغمس مفكرو تلك الفترة في المشاكل التي تتعلق بالدّين، فكان الاهتمام أكثر بما هو موروث، وبالأخلاق وعلم النفس وعلم التنجيم.

أمّا عصر النهضة بمعناه العام الذي يمتدُّ بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر، فيُعتبر حلقة وسطى حيث بداية أفول العصور الوسطى التي سادت فيها فلسفة المدرسيّين المتأثرة بـ"**أفلاطون**"(***Plato***)(427- 347 .ق.م) و"**أرسطو**"(***Aristotle***) (384-322.ق.م) تحت سلطة الكنيسة وبزوغ فجر العصر الحديث؛ وقد مرّ هذا العصر بمرحلتين هامتين في أوربا تمثلان تطورها الفكري(12)؛

أمّا المرحلة الأولى فتُعرف بالمرحلة المتقدمة لعصر النهضة، وكانت نهضة أدبية إنسانية ***Humanistic*** انصبّت على الأدب والفن كما سادت القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

[12] - Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit.,P:27.

أمّا المرحلة الثانية فتعرف بالمرحلة المتأخرة، وهي مرحلة طبيعية ***Naturalistic*** أو علمية، حيث انصبّ اهتمامها على العلم وعلى تفسير الطبيعة، وقد سادت في القرن السادس عشر. أمّا « قيمة النهضة الأدبية والإنسانية لم تكن بعظمة الحركة العلمية فيما يتعلق على الأقل بالآثار الإيجابية الواضحة»(13)، وبرز اتجاه جديد في البحث والتفكير في المرحلة الثانية من هذا العصر، فكان من نتائجه "**الثورة الكوبرنيكية**" التي قلبت مركز عالم الإنسان، واكتشاف أمريكا كنتيجة للدراسة العلمية للأرض وللتطبيقات العلمية للملاحة، وأوحى اكتشاف المغناطيس بكثير من الإمكانيات في العلم الفيزيائي، كما أدّت الظروف التاريخية إلى شيوع اكتشاف "**و.هارفي**"* ***W .Harvey*** (1578– 1657) للدورة الدموية في الأوساط العلمية وإلى تقدم الفيزيولوجيا وفن التمريض. والانطباع الأساسي، لكل هذا التطور ولهذه المعرفة الجديدة على الحياة الإنسانية، لم يكن أكثر من كونه ثورة في شروط الحياة(14).

أمّا من الناحية الفلسفية، فإذا كان عصر النهضة المتقدم . حسب "برتزندرسل" . هو مجرد إعادة كشف للمنابع لا مجرد تأمل فلسفي واسع النطاق بمعناه الدقيق، ومرحلة قراءة للتراث اليوناني القديم خاصة الأفلاطوني منه، فإنّ الفترة المتأخرة من عصر النهضة يمكن اعتبارها مرحلة تعبير عن محاولة الانفصال عن الفلسفة المدرسية من جانب ومرحلة التأسيس للفلسفة الحديثة من جانب آخر؛ وهكذا حاولت فلسفة القرن الخامس عشر والسادس عشر تحرير العقل البشري من السكولائية، أو الفلسفة المدرسية التي سادت القرون الوسطى والتي افتتنت بعبقرية فلاسفة اليونان "أفلاطون" و"أرسطو" كما قلنا، فحرّرته من الاستعباد إلى مبدإ أو سلطة جديدة، وهيأته في الوقت

13 - Delisle (Burns.C.)., The Growth of Modern Philosophy., Op.cit. p: 20.

* - لقد لعبت الظروف التاريخية دوراً في نسبة هذا الاكتشاف للعالم " **وليام هارفي**"، الذي كان الطبيب الخاص لفرنسيس بيكون. والحقيقة التي يتغافل عنها بعض مؤرخي العلوم، سواء عن قصد أو غير قصد، هي أن اكتشاف الدورة الدموية يعود حقيقة إلى العالم العربي الإسلامي"**ابن النفيس**".

14 - Seth (James)., English Philosophy and Schools of Philosophy. Op.cit, p:27.

ذاته للفلسفة الحديثة، أو لاستقلال (شبه)كامل؛ وقد قادته من السكولائية إلى الفلسفة الحديثة عن طريق وساطة حقبة زمنية أين لا تزال السلطة حاكمة، لكنها سلطة أضحت أكثر مرونة من تلك التي كانت قائمة في القرون الوسطى، سلطة العصور القديمة الفلسفية حسب الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي "**فيكتور كوزان**" ***Victor Cousin*** (1792-1867) في عمله الهام "***دروس في تاريخ الفلسفة الحديثة***"(15). على الرغم من أنّ الفيلسوف "**برتراند رسل**" ***Bertrand. Russell*** (1872-1970) يرى أنّ القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في ميدان الفلسفة بمعناها الدقيق لم يكونا، على وجه الإجمال، متميّزين بصورة خاصة..(عدا) ذلك الإحياء القوي لتراث "**فيثاغورث**" و"أفلاطون" القديم، كلُّ ذلك مهّد الطريق للمذاهب الفلسفية الكبرى في القرن السابع عشر(16)

و مقارنة بالخصائص التي ينسبها مؤرخو الفلسفة للعصر المدرسي، يبدو أنّ مهمّة فلسفة القرن السابع عشر الأولى تتمثّل في محاولة تميّزها عن اللاهوت والدّين لتؤكد على حرية الفكر بدل الاستعباد من السلطات، وأن تحدّد المنهج الملائم للبحث المستقل في طبيعة الواقع. وتلك هي الميزة الثانية للفلسفة الحديثة المتمثلة في تحديد نقطة ثابتة للانعطاف، أي إقرار منهج جديد للبحث؛ وهذه نقطة الانحراف وهذا المنهج هو « الأداة الضرورية والأساس لكل العلوم والفلسفة»(17). وبالتالي ننظر إلى الفلسفة الحديثة على أنّها نشأت من خلال تغيير مركز البحث والاهتمام المعرفي من الله، وكل ما هو متعال إلى الطبيعة، والاهتمام بالحياة الدنيوية، كما كان

15 - Cousin (Victor), Course of the history of modern philosophy.Op.cit.,. p:77.

[16] - رسل (برتراند). حكمة الغرب، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص:39 .

17 - Cousin (Victor), Course of the history of modern philosophy.op.cit . P:79.

الاشتغال في ذلك العصر أيضاً بتميّز العلم عن اللاهوت، أمّا من جانب الفلسفة فلم تهتم بسؤال تميّزها عن العلوم(18).

وحتّى تُبقي التميّز قائماً فإنّها حاولت أن تقطع الصلة بكل ما يمتُّ إلى العصور الوسطى بصلة. وهكذا من جانب، يمكن القول أنّه بسبب الخوف من الافتتان بسحر عبقرية "أفلاطون" و"أرسطو"، انصرفت (الفلسفة الحديثة) عنهما عمداً، وربّما حتّى تجاهلتهما وازدرتهما فداءً للاستقلال. وأعظم فلاسفة هذه الحقبة تقريباً لم تكن لديهم معرفة، ولم يكن لديهم صلة بما هو قديم، وكانوا نادراً ما يقرؤون شيئاً آخر عدا ما هو موجود في الطبيعة أوفي الوعي؛ ومن جانب آخر الاهتمام الدنيوي الآخذ في التقدم في الفلسفة واضح من جميع الأوجه: فمؤسسا الفلسفة الحديثة، أي "فرنسيس بيكون" و"ديكارت"، لم يكونا منتميين إلى الهيكل الكنسي، ومع قليل من الاستثناءات فإنّ فلاسفة القرن السابع عشر لم يأتوا من صفوف الكنيسة(19). وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلُّ على صفة الاستقلالية وكذا الحرية التي بدأت تلقي بظلالها على العصر.

أمّا بالنسبة للجامعات التي ينبغي أن تكون مركز إشعاع للفكر الحر، فلم تشذ عن القاعدة في العصر الوسيط وذلك بخضوعها للسلطة القائمة آنذاك. فقد خضعت هي الأخرى للسلطة القائمة، أي لسلطة الكنيسة شأنها في ذلك شأن كل المؤسسات، أمّا في العصر الحديث وخارج نطاق الجامعات تكوّنت الأوساط الفكرية الجديدة في مؤسسات جديدة. ففي القرن السابع عشر نشأت ما يعرف بالأكاديميات التي بدأت في إيطاليا مع نهاية القرن السادس عشر، وانتشرت في أوربا في القرن السابع عشر، ويمكن الإشارة إلى أنّ هناك ثلاثة من هذه المؤسسات اكتسبت شهرة

18 - Seth (James). English Philosophy and Schools of Philosophy. op.cit .p:17.
19 - Cousin (Victor), Course of the history of modern philosophy. op.cit.p:78.

في أوربا وكانت مفيدة لثقافة التفكير الحر وهي: أولاً، الجمعية الملكية في بريطانيا ومقرها لندن، والتي خطط لها "**فرنسيس بيكون**"***Francis, Bacon*** [1561–1626] أولا في أكسفورد سنة 1645، وقد كان "لوك" و" **نيوتن**"***Isaac , Newton*** (1642– 1727) من أعضائها المؤسسين. ثانياً، أكاديمية العلوم في باريس. ثالثاً، أكاديمية برلين التي خطط لها "ليبنتز" وأسسها بنفسه، وقد كان أول رئيس لها، وحرّر أول جزء من محضر جلساتها. ويمكننا التأكيد في العصر الحديث على الاستقلال عن العقيدة والسلطات القائمة، وأيضاً إحياء الاهتمام بالعلم الطبيعي. هذه الخصائص هي التي ميّزت العصرين، لكن تعميم هذه النتائج التي ربطناها بالفلسفة الحديثة غير صحيح – برأي "**جونستون**"[(20)]– وذلك لأنّ هناك أناساً من الفترة الوسيطية كانوا *متشربين* بروح الاستقلال والبحث العلمي. وهناك البعض من فلاسفة القرن السابع عشر من تأثروا بالفلسفة الوسيطية.

[20] - Calkins.M.W,The persistent problems of Philosophy. Op.cit., ,p: 18.